



الخميس 2 يونيو 2016 03:06 م

عبدالوهاب عمارة :

رمضان وإمكانية التغيير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

يقولون : (الطبع يغلب التطبع).
ويقولون أيضا : (يموت الزُّمَارُ وأصابه تلعب).
وهذه قوة سلبية يبثها المتشائمون المثبِّتون المعوِّقون العجزة الفاشلون
وهل ولد زُمَارًا؟! أم أنه تعلّم وتدرب وتعوّد وبذل وصبر حتى صار له طبعاً بل فنّاً يجيده ويحسّنه؟!
فلم لا نتطبّع بالشيء، بمران أنفسنا وتعويدنا على الشيء حتى يكون لنا عادة وطبعاً
وتعلمنا ذلك من ديننا

ففي كتاب ربنا عز وجل {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} (1) قَالَ الْحَسُّ وَقَتَادَةُ: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صَلَاحَهُ ثُمَّ هَدَاهُ لِمَا
يُضِلُّهُ (2)
{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا* إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} (3) فَمَنْ تَوَجَّهَتْ هَمَّتُهُ إِلَى
العلا ينالُهُ، وكذلك مَنْ أَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَلِّحَتْهُ بِقَدْرِ دَنُوِّ هَمِّهِ مِنَ الدَّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَالتَّبَعِيَةِ

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (4) {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (5)

يقول الشهيد سيد قطب: إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه وتعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد
أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزوّد باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال فهو قادر
على التمييز بين ما هو خير وما هو شرٌّ كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواءً وأن هذه القدرة كامنة في كيانه،
يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» .. ويعبر عنها بالهداية تارة : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» ..
فهي كامنة في صميمه في صورة استعداداتٍ والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها
وتوجهها هنا أو هناك ولكنّها لا تخلقها خلقاً لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تنشط بها التبعية فمن
استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغلبه على استعداد الشر فقد أفلح ومن أظلم هذه
القوة وخدّأها وأضعفها فقد خاب «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (6)
{... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...} (7)

فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة□□□ إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم□ وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون□ ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس إليهم□ (8)

وفي سنة نبينا صلي الله عليه وسلم « الْخَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لِحَاجَةٍ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » (9)

فكل عمل أو خلق إنما جاء بالأساس بالتعود عليه وتكراره□

وفي فيض القدير: والعادة مشتقة من العود إلى الشيء مرة بعد أخرى حتى يسهل عليه فعل الخير والصلاح والعامل من جاهد نفسه {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (10)

اعترض كلب في طريق عيسى عليه السلام فقال: اذهب عافاك الله فقيل له: تخاطب به كلبا؟ قال: لسان عودته الخير فتعود

وقال الحكماء: العادة طبيعة خامسة□ (11)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِئِمَّا الْعِلْمِ بِاللِّعْلَمِ، وَإِنَّمَا الْجِلْمُ بِاللِّتَّكَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ ... » (12)

وفي الحديث «... وَمَنْ يَبْتَغِفْ يُعْفَهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغِنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَضَرَّ يُضَرَّهُ اللَّهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » (13)

فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ... ومن أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتباً بالطبع فلا طريق له إلا أن يحاكي الخط الحسن ويواظب عليه مدة طويلة فيتشبه بالكاتب تكلفاً ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً□□□ وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له فلا علاج له إلا ذلك□□□

فالأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتماد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قراء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً□ فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة□ ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قراء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل□ (14)

وحتى لو جربت مرة ومرات حاول ثم حاول ولا تعجز « ... اخْرِضْ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ قَدَرٌ اللَّهُ وَمَا سَاءَ فَعَلٌ فَإِنَّ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ » (15)

عُدْ بالنفس إلي أصلها:

جاء في الحديث « ... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَأَجَبَتْنَهُمْ عَن دِينِهِمْ، وَحَرَّبَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُسْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا□□ » (16)

قال النووي: قوله تعالى: {وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ} أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية□ وقوله تعالى: «وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ، فَأَجَبَتْنَهُمْ عَن دِينِهِمْ» أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل□ (17) وقال الطاهر بن عاشور: «وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشر بالجملة تعين أن عقل الإنسان منصرف بجملة إلى الخير، ولكنه معرض

لوسوسة الشياطين، فيقع في شذوذ عن أصل فطرته، وفي هذا ما يكون مفتاحا لمعنى كون الناس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة،

وكون الأصل في الناس الخير» (18)

«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يَمَجِّسَانِهِ» (19)

قال القرطبي: «الفطرة هي الخلقة التي خلق الله عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة» (20)

وجاء رمضان ليكون فرصة نتعلم فيه كل خير ونعود أنفسنا على الفعل الجميل فهو بمثابة برمجة النفس والعقل علي التعود علي الفضائل وترك الرذائل حتى يصير الخير سجية في النفس وعادة في الطبع □

يقول الإمام ابن القيم: كَانَ الْمَقْضُودُ مِنَ الصِّيَامِ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَفِطَامَهَا عَنِ الْفَالُوفَاتِ وَتَعْدِيلَ قُوَّتِهَا الشَّهَوَانِيَّةَ لِئَسْبَغَ تَعَدُّ لَطَلَبٍ مَا فِيهِ غَايَةٌ سَعَادَتِهَا وَنَعِيمُهَا وَقُبُولُ مَا تَرْكُوبُهُ مِمَّا فِيهَا حَيَاتُهَا الْأَبَدِيَّةُ وَيَكْسِرُ الْجُوعَ وَالظَّمَأَ مِنْ حِدَّتِهَا وَسُورَتِهَا وَيَذَكِّرُهَا بِحَالِ الْأَكْرَادِ الْجَائِعَةِ مِنَ الْمَسَاكِينِ . وَتُضَيِّقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ مِنَ الْعَيْدِ بِتَضْيِيقِ مَجَارِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَتُحْبِسُ قُوَى الْأَعْضَاءِ عَنِ اسْتِزْسَالِهَا لِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ فِيمَا يَصْرِفُهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا وَيُبَسِّحُ دُلَّ عَضْوِ مِنْهَا وَدُلَّ قُوَّةَ عَنْ جِهَادِهِ وَتُلْجِمُ بِإِجَامِهِ مَهْوُ لِجَامِ الْمُتَوَقِّينَ وَجُنَّةَ الْمُفَارِقِينَ وَرِيَاضَةَ الْأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ ... فَهَوُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى التَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (21)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّومُ جُنَّةٌ . وَأَمَرَ مَنْ اسْتَدَّتْ عَلَيْهِ شَهْوَةٌ النِّكَاحِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ بِالصِّيَامِ وَجَعَلَهُ وَجَاءَ هَذِهِ الشَّهْوَةُ □ (22)

ولابد أن نشق أننا نستطيع التغيير بجد ومجاهدة وصبر ومثابرة واستعانة بالله □
وإلي لقاء قريب بإذن الله مع ... رمضان وضرورة التغيير

abdelwahabemara@yahoo.com

- (1) سورة طه الآية 50
- (2) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي □
- (3) سورة الإنسان الآيات 2-3
- (4) سورة الشمس الآيات 7-10
- (5) سورة البلد الآية 10
- (6) في ظلال القرآن
- (7) سورة الرعد الآية 11
- (8) في ظلال القرآن
- (9) رواه ابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسنه الألباني □
- (10) سورة العنكبوت الآية 69
- (11) فيض القدير
- (12) رواه الطبراني في الأوسط ، والدار قطني والخطيب، وابن عساكر عن أبي الدرداء وحسنه الألباني □
- (13) رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه
- (14) إحياء علوم الدين
- (15) رواه مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (16) أخرجه مسلم وعن عياض بن جابر الجعفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (17) شرح النووي على صحيح مسلم
- (18) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور
- (19) متفق عليه
- (20) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
- (21) سورة البقرة الآية 185
- (22) زاد المعاد في هدي خير العباد